السفسطائية نشأتها ومواقفها الفلسفية

المدرسة
مها عيسى فتاح العبدالله
كلية الاداب – جامعة البصرة

ليس من السهل دراسة السفسطائيين ومعرفة حقيقتهم بصورة دقيقة حيث ان تاريخ الفلسفة شهد اختلافاً كبيراً حولهم ، فقد اختلفت الآراء بين من يحط من شأنهم ومن يرفع من شأنهم .

فقد اعتبرت السفسطائية نزعة هدامة مع افلاطون وارسطو طاليس واستمرت هذه النظرة اليهم حتى القرن التاسع عشر وذلك مع الفيلسوف هيجل الذي ارتفع بهم ارتفاعاً كبيراً في كتابة ((تاريخ الفلسفة)) اذا اعتبر السفسطائية لحظة أساسية من لحظات تطور الفلسفة عند اليونان ، ثم عاد المؤرخون بعد –هيجل حتى نهاية القرن العشرين – الى النظرة القديمة التي اعتبرت السفسطائية نزعة هدامة ، ثم تغير الموقف منهم مع بداية القرن العشرين حيث عاد المعنيون بالفلسفة مرة اخرى الى نظرة هيجل فعظموا من شأنهم فنسبوا اليهم صفة التنوير . [١]

كما ان هناك من المعنيين بالفلسفة من يتجاهل السفسطائيين بصورة كلية حيث نجد كتاباً معنياً بالفلسفة اليونانية قبل ارسطو للاستاذ الدكتور حسام الآلوسي ، وفيه يتناول تاريخ الفكر والفلسفة ، ما قبل طاليس منتهيا بافلاطون ولا يذكر شيئاً عن السفسطائيين ، سوى ما جاء من ذكر لهم عن حياة سقراط ، وكذلك ما ذكر عن نقد افلاطون لبعض ارائهم . وهو موقف يثير التساؤل ، وان كنا نجهل الاسباب التي دعت الدكتور الآلوسي لعدم الاشارة اليهم .

هذا يعني ان الدارس للسفسطائية يواجه صعوبات كثيرة منها ما يتعلق بهم انفسهم ، ومنها ما يتعلق بالعصر الذي ظهروا فيه وما حدث فيه تغيرات هامة وخطيرة

أوعزها بعضهم السفسطائيين ، كما ان هناك مشكلات تتصل بآرائهم حيث لم يصل من نصوصهم الا ما كان من الزامات خصومهم لهم ، وبصورة خاصة افلاطون وارسطو طاليس . هذا من جانب كما اختلطت آراؤهم باالافكار الشعبية عنهم من جانب آخر لذا سوف نحاول ان نقدم نبذة مختصرة عن صعوبة دراستهم والظروف التاريخية لنشأتهم .

أولاً : مقدمة .

أ – صعوبة دراسة السفسطائيين .

كما ان هناك صعوبات عديدة تواجهنا في دراسة السفسطائيين ومنها طبيعتهم الخلافية الجدلية حيث صب السفسطائيون جهدهم على الجدل فكانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء بالاضافة الى ذكرهم للحجج الخلابة في مختلف المسائل والمواقف التي تواجههم اذا كانت غايتهم من ذلك هي الاقناع والتأثير الخطابي وليس الوصول للحقيقة ، وهذا الامر دفعهم للنظر في الالفاظ ودلالتها والقضايا وانواعها والحجج وشروطها والمخالطة وأساليبها . [٢] لقد تنوعت الموضوعات التي اهتم بها السفسطائيون في تعليمهم حيث كان هناك معلمون للجدل أو النقاش كان في امكانهم ان يجعلوا الحجة السيئة تبدو وكأنها هي الافضل ، ولا يخفى ما لهذا الفن من فوائد وبصورة خاصة في المحاكم اذا كان يتعين على المتهم الدفاع عن نفسه ، وقد تمكنوا من تعليم الناس كيف يحورون الحجج ويقحمون الخصوم وهذا النوع من الجدل أي الجدل الخطابي كما يرى رسل يختلف عن الجدل الفلسفي (الديالكتيك) فالجدل الخطابي غايته الفوز ، اما الجدل الفلسفي فغايته الوصول للحقيقة . [٣]

هذه النقطة تثير عدة تساؤلات وهي أكان السفسطائيون حقاً لا ينشدون اية حقيقة ام كان الفوز بالحقيقة قد ارتبط عندهم بمكسب مادي وهو كسب الخصم لقضيته أمام المحاكم أو نيل منصب سياسي وهو الوصول الى السلطة ، ام لانهم قد قبلوا ان يروا في الحكم على القضية اكثر من وجه ، فهي تبدو مرة صيحة واخرى باطلة ، بينما ليس في الحقيقة الفلسفية الا وجه واحد ، هل كان السفسطائيون جادين في تعليمهم لهذا النوع من الجدل ام

لمجرد التسلية ومعرفة امكانيات اللغة ، فاساء عصرهم لهم خاصة عندما أخذ عدد من الافراد بمنهجهم الجدلي هذا وطبقوه بصورة عملية .

ان هذه التساؤلات وغيرها تضع أمامنا صعوبة اخرى لايمكن من خلالها الاجابة عن هذه التساؤلات خاصة وان الاراء التي وصلت كان اكثرها من خصومهم فاالاضطراب الفكري الذي أحدثته الحركة السفسطائية قد حكم عليه بصورة عداءأو عاطفه قبل كتاب التراجيديا والكوميديا المعاصرة لهم بالاضافة الى شهادة أقوى خصوم لهم وهو افلاطون . (٤)

وكذلك نقد معاصرهم سقراط الذي جاءت معارضته لآرائهم ونقدها عن طريق افلاطون كما صور ذلك في عدد من محاوراته ، وكذلك ما جاء ذكره عن طريق ارسطو طاليس لهم ، وهو تأييد لموقف استاذه افلاطون .

هذه المسألة تقودنا الى صعوبة اخرى وهي نقد السفسطائيين والهجوم عليهم وبصورة خاصة من قبل افلاطون الذي وضع عدة محاورات لنقدهم وابرزها بروتا جوراس وجورجياس أو الخطيب ومحاورة السفسطائي وخصص بعض من محاوراته أيضاً لنقد ما جاءوا به من علم مثل محاورة االثئيتس ، فلا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفات افلاطون من الاشارة الى شخصية منهم ، أو فكرة من أفكارهم والبحث غير معني بتوضيح نقد افلاطون لهم ، ولا معرفة أسباب ودوافع نقده لهم ، وسوف نفصل هذا النقد في بحث آخر بنقد افلاطون للسفسطائيين .

لقد عرض (جومبرز) أربعة أسباب كانت وراء نقد الناس للسفسطائيين ومن ثم تحولهم عنهم وبغضهم لهم وهي :

١- ان كل محاولة كانت تبذل لكشف غوامض الطبيعة ومعرفة أسرارها كانت تقابل عدم الثقة من قبل المتمسكين بالدين والتغيرات التي جاءت بها الاساطير ونسبت الى الالهة ، لذلك فعندما بحثوا في الامور الانسانية – وهي أكثر من الطبيعة لانها تتعلق بالانسان مثل اللغة والاخلاق والدين والقوانين – أصبحوا اكثر عرضة لكره وبغض الشعب وبصورة خاصة المحافظين .

٢- ان اليونانيين كانوا يحترمون النزعة الارستقراطية ، وينزلون اصحاب الحرف الذين يتناولون الاجر منزلة ادنى ، فكان السفسطائيون ينالون الاجر مقابل التعليم للاثنين .

٣-ان القادرين على دفع الاجر لهم هم القلة القليلة من الاغنياء وبهذا أصبح جمهور الشعب محروما من ذلك التعليم ، ففقدوا بذلك سلاحاً قوياً هم بحاجه اليه في التعبير عن أفكارهم والدفاع عن أرائهم*

٤- معارضة سقراط لهم ثم تبعه افلاطون . (٥)

ان هذه الصعوبات جميعها تمثل عائقاً حقيقياً امام الكشف عن السفسطائيين ومعرفة حقيقتهم ، وذلك لكثرة ما لحقهم من تحقير ونبس فتارة وصفوا بانهم مدعون للعلم او متاجرون به واخرى بانهم مفسدون للشباب ، لايحترمون القيم السائدة وغيرها ، لذا فمن الصعب معرفتهم والحكم عليهم من الوهلة الاولى بدون فحص دقيق لما قيل عنهم ، وما جاءوا به ، وربما تساهم معرفتنا بالظروف التاريخية لنشأتهم بازالة ما هو غامض وتجعلنا اكثر قرباً لفهم السفطائيين .

ب- الظروف التأريخية لنشأة السوفسطائية:

يقدم الباحثون اسباباً عديدة ادت الى ظهور السفسطائيين نذكر منها :

١ــ اضطراب القيم بسبب الحروب :

لقد انشغلت بلاد اليونان ولفترات طويلة بحروب داخلية وخارجية حيث خاضت عدة حروب خارجية وبصورة خاصة مع الفرس وداخلية مع الاسبارطيين وكان من نتيجة تلك الحروب العديدة تغير القيم التي كانت سائدة . بعد الانتصار على الفرس نقطة حاسمة في التاريخ الاثييث وذلك لان الحياة قد تغيرت في اثرة تغيرا جوهريا .(٦) الا ان هذا الانتصار على الفرس بقدر ما كان عامل ازدهار في جميع المجالات لاثينا كان ايضا عامل تدهور وانحطاط حيث تعرضت القيم الاخلاقية والقوانين السياسية الى النقد الشديد والصراع العنيف ، وهذا دفع الانسان الى ان يعيد النظر في قيمة الاخلاقية ، فمتد النقد لكل شئ بما في ذلك نقد الدولة وقوانينها . (٧) كما ادى التداخل المستمر لاثينين مع الامم

الاخرى الى مقارنة الاشكال المختلفة للحكومة والقوانين والعادات الاجتماعية والقيم الاخلاقية حيث زالت المحضورات والموانع فاصبحت بهذا الحياة في المدن الاغريقية مهياة لاحداث كثير من التغير ، فظهر النزاع بين من يتمسك بالتقاليد القديمة ويلقي بمتاعب العصر الى الابتعاد عن كل مايمت الى الماضي بصلة ، حيث شددوا على التمسك بالنظام والسلطة ، وميزوا بين الصواب والخطا في قواعد صارمة للاخلاق ، وبين من يعارضهم وهم الذين انكروا الصلة بالماضي واخذوا يتسألون عن مصدر التميز بين الصواب والخطأ ، وزعموا انه ينبغي على الانسان ان يفعل ما يلذ له ، وان يحصل على كل ما يستطيع الحصول عليه من الحياة لنفسه . [٨] وهذا يعني ان السفسطائيين كانوا يوفون بحاجات عصرهم وبصورة خاصة للايفاء بحاجات المواطنين الاجتماعية وذلك في النصف الاخير من القرن الخامس قبل الميلاد . [٩] كما يرى ((زللر Zellr)) بان الاصل في نشأة السفسطائية هو الموازنة بين التقاليد وصور الحياة المختلفة ، بعد اتساع رقعة اليونان ورحلة رجالها الى شتى البلاد واتصالهم بالاجانب ، واطلاعهم على الحضارات المختلفة مما أثار في أنفسهم التساؤل عن الحضارة أهي من خلق الانسان أم من صنع الآلهة . [١٠] مما تقدم نلاحظ ان المجتمع كان مهيئاً لقبول فلسفة السفسطائيين والاقبال عليهم ، فما كان منهم الا ان طرحوا أفكارهم وانتقاداتهم لما كان موجودا من عادات وتقاليد وقوانين وقيم خلقية وفلسفية ، فهم في المقام الاول كانوا حاملين رسالة التنوير الاغريقي، حيث كان دورهم فعالاً في توسيع الثقافة اذ كرسوا نشاطهم لتهذيب او التغيير وجعلوا نظرياتهم في متناول الجمهور . حيث كان عملهم موجهاً اولاً وبنظرة نافذة الى حاجات الشعب . [١١]

وهذا يعني بان السبب الذي كان وراء تغيير القيم هو الحروب التي خاضتها اثينا وكذلك الاحتكاك مع الاجانب سواء عن طريق رحالات الاثنيين الى البلدان الاخرى والاطلاع علىحضارة تلك البلدان ، او عن طريق معرفة تفاصيل الحضارات الاخرى بسبب مجيء العلماء والشعراء والفلاسفة وغيرهم الى اثنيا بصورة خاصة بعد انتصارها على الفرس وتحول اثنيا الى مركز ثقافي مزدهر وذلك في عهد بركلس .

٢- الديمقراطيـــــة :

لقد احدث الانتصار على الفرس تغير في المجتمع الاثيني ، حيـث انتقـل مـن مجتمـع زراعي الى مجتمع تجاري صناعي ، كما تحول من مجتمع ارسـتقراطي الـى مجتمـع ديمقراطي وهذا يعني ظهور طبقة من الاثرياء والسياسيين . كما ادى انتقـال المجتمـع الاثيني الى مجتمع تجاري ، صناعي الى تراكم الاموال ، بالاضافة الى الامـوال التـي كانت تأتي من الضرائب بصورة خاصة تلك التي كانت تدفع الى اثينيا من قبل اعضـاء حلف ديلوس** .[١٢] ان التغير الذي حدث بالمجتمع الاثيني ساهم وبشكل فعال في ظهور السفسطائيين وذيوع صيتهم ، وبصورة خاصة من الناحية الاجتماعية والسياسية ، فمـن الناحية الاجتماعية كانت طبقة اثرياء التجارة بحاجة الى التعليم ، تعلم الخطابة والجدل ، وذلك لدفع الاتهامات التي كانت توجه اليهم امام المحاكم الشعبية والدفاع عن مصالحهم ، ومن الناحية السياسية كانت تلك الطبقة بحاجة الى تعلم فنون السياسة مـن اجـل احكـام سيطرتهم على الانتخابات ومن ثم تحقيق الفوز والاستئثار بالسلطة . [١٣] أي ان ظهـور الديمقراطية ونمو الروح الفردية التي تعاظمت بسبب تزايد الصـراع الاجتمـاعي امـام المحاكم وتزايد الصراع السياسي من اجل الفوز بالانتخابات هو الذي كان وراء انتشـار التعليم السفسطائي ، وشيوع المفاهيم الجديدة بصورة خاصة لدى اغنياء التجارة وذلك في القرن الخامس مثل الميلاد ، فكان بأمكانهم الحصول على ما لدى السوفسـطائيين مـن معارف ومهارات فكرية مقابل دفع مبلغ من المال وذلك من اجل تقديم مثل جديدة تتناسب مع الحياة الاجتماعية والسياسية الجديدة وتستطيع من خلالها ان تعارض المثـل القديمـة التي كانت تتمسك بها طبقة النبلاء . [١٤]

لقد ابى السفسطائيون ان يعظموا التقاليد المتواترة التي لا تؤيدها شواهد الحس او منطق العقل ، كما كان لهم دور مهم في الحركة العقلية التي حطمت اخر الامر ديـن اليونـان القديم عند طبقات الذهنيين [١٥] .

حيث شك السفسطائيون بكل ما كان موجوداً من عادات وتقاليد وقـيم وفلسـفة فأنتقدوا ما كان موجوداً ، لقد اصبحت السفسطائية علامة من علامات القرن الخامس قبل الميلاد هو القرن الذي امتازة بتعاظم الديمقراطية الاثنية والتي ادت في النهاية الى فسـح

المجال للسلطة والقوة لكل من يملك المقدرة على الاقناع امام الجمعية العمومية والهيئات القضائية هذا من جانب ومن جانب اخر امتاز القرن الخامس قبل الميلاد بظهور الاتجاه العلمي والبحث في كافة المجالات من خطابة وسياسة وعلم واخلاق ، فكان ظهور السوفسطائيين نتيجة لتلك الظروف ولسد حاجات المواطنيين الاجتماعية والسياسية في القرن الخامس قبل الميلاد . (١٦)

حيث يشير استخدام مصطلح السفسطائيين تأريخياً لدى الاغريق وبصورة خاصة في القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد كمعلمين متنقلين من مكان الى لاخر مثل ((بروتاجوراس)) و ((هيباس)) من اليا و ((بردوكيوس)) من سيوس و ((ثراسيماتيس)) حيث كانوا يمثلون مركزاً فعالاً في اثينا سواء في بداية او نهاية الحركة الفسطائية ... ثم بمرور الوقت اصبح مصطلح الفسطائية يعني معلم الخطابة . (١٧)

نلاحظ من خلال ذلك بان القرن الخامس قبل الميلاد كان عصر ازدهار فكري ، فلو لم تكن لدى الاثنيين الرغبة الحقيقية في التعلم وايجاد قيم جديدة يخالفوا بها ما كان موجوداً لما استطاع السفسطائيون ان يساهموا بتلك الحركة الفكرية الواسعة ، بمعنى آخر ان السفسطائيين الذين كانوا يعلمون ويشيعون القيم الجديدة ، والذين كانوا يتلقون عنهم من الاثنيين ساهموا معا بتلك الحركة التي أصبحت سمة من سمات القرن الخامس قبل الميلاد ، أي ان تراكم الاموال في أثنيا ليس هو السبب في ذلك الازدهار الفكري بل الرغبة في طلب العلم . حيث نلاحظ ان السفسطائيين رغم انهم كانوا يصرون على ان المهارات السياسية لايمكن الاستغناء عنها في الحياة اليومية الا ان تلك المهارات لا يمكن تعلمها للشخص المدني الذي بامكانه ان يدفع لهم ، لكنه يستطيع ان يصبح شخصية سياسية ماهرة بالكلمة والانجاز ، هو النجاح في المدينة ، وهذا ما نلاحظه في رسالة هيبيباس ، وانتاج جورجياس وبصورة كلية لدى بروتاجوراس . (١٨) بمعنى اخر ان النجاح السياسي كما يرى السفسطائيون لا يتحقق لكل من يستطيع الدفع بل ان تحقيقة يتم بالكلمة أي بالقدرة على الاقناع ، أي ان ذلك يعتمد على قدرة الشخص على تعلم المحاجه التي تمكنه من تحقيق الاقناع ، حيث لم تكن مهمة السوفسطائيين تربية رجال الدولة جميعاً بل كان غرض التربية السفسطائية متجهاً الى ايجاد طبقة من القادة تستطيع ان تسير امور الدولة

، فالحالة السياسية كانت تقتضي ان توجد طبقة من الناس تعلم كل الالفضائل التي يستطيع المواطن من خلالها الوصول الى قيادة الدولة . (١٩)

ثانياً : الاصول الفكرية للسفسطة .

على الرغم من ان السفسطائية كانت نقطة حاسمة في تاريخ الفلسفة اليونانية ، اذ انتقل فيها البحث من الطبيعة الى الانسان الا ان السفسطائية قد استمدت اصولها الفكرية من الفلسفة اليونانية التي سبقتها حيث انتقدت من جانب واخذت من جانب اخر ، ويمكن ان نشير الى أهم تلك الاصول بصورة مؤجزة حيث تمثلت بـ :

١- **نقد النزعة الوثوقية :**

لقد انتقد السفسطائيون الفلاسفة الذين سبقوهم والذين آمنوا بحقيقة مطلقة بامكان العقل الوصول اليها في حين شكوا في الحواس فراى السفسطائيون بان عالم العقل ليس أصدق من عالم الحس ، واذا انعدمت الحقيقة في عالم الحس ، فلابد ان تكون كذلك في عالم العقل وذلك لانهم لا يعتقدون بوجود حقيقة مطلقة . (٢٠)

لقد انتقدت السفسطائية أصحاب النزعة الوثوقية والتي آمنت بوجود حقيقة مطلقة واحدة في العقل ، وهذا ما جاءت به المدرسة الايلية التي اعتبرت ان الاشياء كثيرة في الحس لكنها واحدة بالعقل ، فاتكر السفسطائيون رأي الايليين هذا كما انكروا مذهبهم في رد المعرفة الى العقل دون الحس ، وذلك لان الحس يخص صاحبه في حين ان العقل هو حظ مشترك بين جميع الناس . (٢١)

ان السفسطائيين لم يرفضوا فقط القول بوجود حقيقة مطلقة سواء في عالم الطبيعة ام في العقل بل انهم قد رفضوا علم الطبيعة حيث رأوا انه علم لافائدة منه للانسان لكي يسلك سلوكاً صالحاً في الحياة هذا من جانب ومن جانب آخر فقد أظهروا بان الفلاسفة الذين سبقوهم جميعاً قد ناقض بعضهم بعضاً ، وصرحوا بان المعرفة الانسانية عاجزة عن ادراك الواقع كما هو في ذاته لذا فعلى الفلسفة ان تكف عن البحث عن الحقيقة المطلقة التي لها وجود في الطبيعة . (٢٢)

٢- هيرقليطس وديمقريطس :

بعد ان رفض السفسطائيون القول بوجود حقيقة مطلقة عادوا في بحثهم عن المعرفة الى رأي ديمقريطس الذي أرجع المعرفة الى الاحساس ، وكذلك الى مذهب هيرقليطس في التغير المتصل ، فمن ديمقريطس انتهوا الى اعتبار الفرد هو مقياس الاشياء جميعاً كما يقول بروتاجوراس ، وبهذا أصبحت الحقائق مرتبطة باالاحساسات والانطباعات الذاتية ومن ثم يطل القول وجود حقيقة موضوعية مستقلة عن الفرد وظروفه ، وعليه فقد تعددت الحقائق تبعاً لتعدد مدركيها والحالات التي تطرؤا عليهم ، ومن مذهب هيرقليطس ،في التغير مد السفسطائيون التغير فلم يعد محصورا فقط بالتغير الحاصل بالوجود الطبيعي بل أصبح عاماً شاملاً حيث شمل الاخلاق والسياسة ، فالقيم الخلقية كذلك قابلة لتغير أي انها تتغير بتغير الزمان والمكان وتختلف باختلاف الظروف والاحوال ، هذا من جانب ومن جانب اخر بما ان الانسان أصبح لديهم هو مقياس الاشياء جميعاً ، فهو أيضاً مقياس الخير والشر ، والصواب والخطأ ، لذا أصبحت القيم الخلقية اعتماداً على الانسان نسبية متغيرة وليست مطلقة ثابتة . (٢٣)

٣- ظهور النزعة الانسانية :

٤- حاولت الفلسفة التي سبقت ظهور السفسطائيين رغم تركيزها على البحث في الطبيعة اذ تدخل الانسان في بحثها الى جانب الطبيعة وان كانت تلك المحاولات يسيرة ومحدودة فقد حاول (اكسانوفان) ادخال الانسان في البحث الفلسفي الى جانب الطبيعة الخارجية ، رغم ان محاولته تلك لم تمتد في المدرسة الايلية التي كان هو مؤسسها ، كما ان هيرقليطس اراد ان يجعل من اللوغوس المبدأ الاول الثابت في الوجود ، وهي محاولة فيها الكثير من ادخال الانسان في التفكير الفلسفي ، فاللوغوس او العقل هو خاصية الانسان ، فكان الانتقال تم هنا من الانسان الى الطبيعة الخارجية . كذلك قال انكساغوراس بمبدأ عقلي روحي ، وجمع انبادوقليس بين الطبيعة الايونية وبين فكرة الخلاص كما هي عند الاورفية ، أي جمع بين الطبيعة الخارجية من ناحية والانسان وما يتعلق به من ناحية اخرى .

ان هذه المحاولات جميعها كانت لتؤكد ولو بصورة غير صريحة ثبات الروح الانسانية او الذات ، أي ان الانسان قد دخل في دائرة تفكير الفلاسفة اليونانيين شيئاً فشيئا ، فكان لابد ان يخطوا هذا الاهتمام الخطوة الاخيرة فيرفع الانسان فوق الطبيعة وبصورة تامة . [٢٤] هذا يعني بأن انتقال البحث من عالم الطبيعة الى عالم الانسان مع السفسطائيين وسقراط قد سبق ببدايات مهدت له ، فاصبح معهم موضوعاً كلياً بعد ان كان موضوعاً جزئياً فانتقل بهذا البحث وبصورة واسعة الى الانسان ، فتناول الفلاسفة مشكلات الانسان في المعرفة والاخلاق والسياسة والجمال .

ثالثاً : السفسطائيون : عناصر تفكيرهم :

ركزت السفسطائية في فلسفتها على جملة من المسائل وقد شكلت تلك المسائل العناصر الحقيقية لفلسفتها وسوف نشير الى ابرز تلك العناصر وهي :

١- الاهتمام بالانسان :

كما لاحظنا ان السفسطائية قد نقلت البحث من عالم الطبيعة الى الانسان ، فهي قد اختلفت عن الفلسفة الطبيعية في الموضوع والمنهج والغاية ، فالسفسطائية هي فلسفة حضارة لا طبيعة ، وموضوعها هو الانسان وحضارته من دين ولغة وفن واخلاق وسياسة ---- الخ ومن ناحية المنهج فان المنهج السفسطائي هو تجريبي استقرائي بينما منهج الطبيعيين قياسي يصل الى النتائج من خلال المبادى التي يضعونها اما من حيث الغاية فان غاية الطبيعيين كانت المعرفة لذاتها ، اما السفسطائيون فغايتهم عملية . [٢٥]

مع هذا الانتقال الى عالم الانسان ازدهرت فنون الانسان التي بحث بها السفسطائيون كالخطابة والسياسة واللغة والفن .

كما ان اتصالهم بالاجانب واطلاعهم على الحضارات المختلفة جعلهم يتسألون عن الحضارة أهي من خلق الانسان ام من صنع الآلهة ، أي ان البحث قد تركز على الانسان ومشكلاته . [٢٦]

٢- نسبية الوعي ونسبية القيم :

لقد انصب اهتمام السفسطائيين على الانسان بدلاً من الطبيعة فبحثوا بكل ما يتعلق بالانسان ، حيث اتجهوا في تناولهم لمشكلة القيم من المعرفة ، اذا اعتبرت السفسطائية بان المعرفة نسبية وذلك لاعتمادها على الحواس ، فالحواس هي اداة الحصول على المعرفة وبما ان الادراك الحسي لدى الانسان يختلف من شخص لآخر وعليه فقد اختلف الحكم حول موضوع المعرفة حيث عاد السفسطائيون الى رأي ديمقريطس في رد المعرفة الى الاحساس ، وبهذا ارتبطت المعرفة بالاحساس والانطباع الذاتي فبطل القول بوجود حقيقة موضوعية مستقلة عن الفرد وظروفه وهذا يعني تعدد الحقائق . (٢٧) كما انتهى السفسطائيون الى اعتبار الفرد مقياس الاشياء جميعاً كما يقول بروتاجوراس ، فهو مقياس وجود ما يوجد منها ومقياس لا وجود ما لايوجد منها ، وقد انتهت فلسفته الى جملة من الحقائق هي :

١- المعرفة هي الادراك الحسي.

٢- كل الادراكات الحسية صادقة .

٣- المعرفة نسبية وليست مطلقة .

٤- لكل قضية جانبان يناقض احدهما الاخر .

٥- الوجود يعتمد على الادراك .

٦- لاشيء أصدق من شيء ولكنه قد يكون أفضل أو أنقع منه بمعنى أخر ان جميع الاحاسيس صادقة وهي كما تبدو لنا أو كما يقول افلاطون- في شرح قول بروتاجوراس بان الانسان مقياس الاشياء جميعاً – فهي بالنسبة اليك كما تبدو لك وبالنسبة لي كما تبدو لي . (٢٨)

لقد انكرت السفسطائية القول بحقيقة مطلقة ، وذلك لانها اعتمدت في الحصول على المعرفة على الحواس ، وبما ان ادراكات الحواس متغيرة فاذن الحقيقة متغيرة ايضاً .

انتقلت السفسطائية من موقفها الابستمولوجي الى الاخلاق والسياسة فشمل انكارهم للحقيقة المطلقة ، الاخلاق والسياسة ، وذلك اعتماداً على الانسان ايضاً الذي أصبح ايضاً هو مقياس الخير والشر ، والصواب والخطأ كم يقول بروتاجوراس ، فالقيم

الخلقية اصبحت نسبية فهي تتغير بتغير الزمان والمكان ، وتختلف باختلاف الظروف والاحوال . (٢٩)

ان موقف السفسطائيين من الاخلاق ينسجم مع موقفهم من المعرفة ذلك لانهم قد اعتبروا المصدر الوحيد الذي نعتمد عليه في الحكم على الاشياء هو الانسان هذا من جانب ، كما راى السفسطائيون بان القيم الخلقية نسبية وذلك تبعاً لاختلاف الشرائع بين المدن من جانب آخر . (٣٠) فقد ذهب بروتاجوراس الى ان مصدر القانون هو اتفاق الناس ولما كانت القوانيين الانسانية مصدرها المواضعات والاتفاق فهي اذن مختلفة باختلاف الزمان والمكان . (٣١)

من هنا انتهت السفسطائية الى انكار وجود قيم موضوعية فانكروا ان يكون هناك خير بذاته وشر بذاته ، فالقيم الخلقية أصبحت ذاتيه فردية ، مرتبطة بالفرد ، فالفعل الواحد قد يكون الحكم عليه خيراً وشراً في نفس الوقت فهو بالنسبة لشخص ما ، وشر بالنسبة لشخص آخر ، فليس هناك فرق بين الخير والشر بل هو شيء واحد . (٣٢)

٣- الشـــــــك :

لقد بدأ السفسطائيون بحثهم الفلسفي بالشك ، حيث اتخذوه منهجاً لهم ولم تكن غايتهم من الشك الوصول الى الحقيقة الموضوعية بل لمجرد الشك ، فمدوا شكهم لكل شيء حيث شكوا في المعرفة العقلية فانكروا ان تكون هناك حقيقة عقلية ثابتة ، كما شكوا في القيم الخلقية والدين والعادات والتقاليد والقوانيين ، فجميعها كما راوا واهي من صنع البشر لذا فهي متغيرة وقد تمثل الشك واللاادرية بصورة شاملة بالفيلسوف جورجياس وذلك من خلال ما طرحه في كتابة في اللاوجود حيث يقول

١- لايوجد شيء .

٢- اذا كان هناك شيء فالانسان قاصر عن ادراكه .

٣- اذا فرضنا ان انساناً أدركه فلن يستطيع ان يبلغه لغيره من الناس أي ان جورجياس يرى باننا لانستطيع نقل الحقيقة الى الغير اذن لافائدة من الحديث عن حقيقة الوجود ، اذن ليس هناك وجود او اننا نعبر عما نعرف حقيقة ونحن لا نعرف

حقيقة اذن ليس هناك حقيقة حيث يؤكد جورجياس في القضية الثالثة شكه في القضيتين الاولى والثانية ، فهو يرى بان الانسان عاجز عن نقل الحقيقة للاخرين وذلك لان الانسان يعتمد في ذلك اللغة ، وما هي الا الفاظ ، وهذه هي مجرد اشارات أي رموز ، فالانسان هنا ينقل رموزاً او اشارات ولا ينقل الاشياء ذاتها . (٣٣)

رابعاً : أثر السفسطائيين في الفكر الفلسفي عند اليونان .

لعل من المفيد وبعد هذا الايجاز لنشأة السفسطائية واصولها الفكرية وعناصر تفكيرها ان نوضح أثرها في الفكر الفلسفي اليوناني من خلال تسليط الضوء على ابرز المسائل التي اثرت فيها وهي :

١- <u>النزعة الانسانية :</u>

عندما اتجه البحث مع السفسطائيين وسقراط من الطبيعة الى الانسان أصبح موضوع البحث هو الانسان ، وهذا الاهتمام الواسع بالانسان أدى الى تزايد النزعة الفردية التي حاول من خلالها الفرد اثبات ذاته من الناحية الاجتماعية والسياسية في اثينا ، كما ان الاهتمام بالانسان قادهم الى البحث في مشكلات الانسان فنظروا في مشكلة المعرفة والاخلاق والسياسة والفن أي بكل ما يتعلق بالانسان ، وهذا النوع من البحث الشامل لم يكن موجوداً قبل ذلك .

لقد وجد السفسطائيون في اختلاف الفلاسفة – حول موضوع الحقيقة المطلقة في الطبيعة وعدم الوصول اليها – مجالاً للشك بها ومن ثم الدعوة للبحث في الانسان وقد استمر هذا البحث مع سقراط معاصرهم ثم مع افلاطون وارسطو والمدراس المتأخرة كالابيقورية والرواقية ، بل هذا الاهتمام بالانسان لم يتوقف عند الفلسفة اليونانية بل استمر مع الفلسفة الوسيطة والحديثة والمعاصرة ، حيث شغلت مشكلات الانسان حيزاً كبيراً من البحث الفلسفي فكان بهذا السفسطائيون هم اول من دشن البحث في مشكلات الانسان ورغم انها كانت البداية الا انها كانت بداية عميقة وناضجة لمتطلعات وهموم الانسان .

٢- **الشكـــــــاك :**

كما لاحظنا بان السفسطائيين قد شكوا في كل شيء في وجـــود الوجـــود وفـــي المعرفة والاخلاق والشعائر الدينية والقوانين ، وذلك من خلال موقفهم من المعرفة فهـــي نسبية كما رأوا ، لاعتمادهم في الحصول عليها على الحواس ، فهي نسبية ومكتسبة مـــن العالم الخارجي وليس كما قال سقراط انها فطرية تولد مع الشخص لذا قالوا بعدم قـــدرة الفرد في الحصول على المعرفة ، فلا وجود للمعرفة المطلقة ، كما شكوا فـــي الاخـــلاق والقوانيين والشعائر الدينية فالقوانين الانسانية ليست ثابتة كالقوانين الطبيعية لانها مـــن وضع البشر واتفاقهم فيما بينهم والدليل على ذلك اختلافها بين المدن .

ان السفسطائيين بشكهم المطلق هذا قد دشنوا للمنهج الشكي كما عرف فيما بعـــد باعتباره واحداً من المناهج التي تمكننا من الحصول على المعرفة حيـــث جـــاء بعـــدهم الشكاك فاتقنوا المحاجة على اصولها فأقاموا الشك مـــذهباً بـــين المـــذاهب ، ان الشـــك السفسطائي انصب على قيمة المعرفة اما اصحاب الشك المنهجي الذين تأثروا بهم فيمـــا بعد فقد تنوع شكهم فكان الشك الخلقي لدى بيرون والشك الجدلي لـــدى (اناســـيداموس) والشك التجريبي لدى (اسكستوس) .[٣٤]

٣- **فلسفة اللغـــــة :**

كما قلنا بان الانسان أصبح هو موضوع البحث مع السفسطائيين لذا ركزوا على جميع مشكلاته ومنها مشكلة اللغة ، حيث تسألوا عن اللغة وأصلها هل هي ثابتة ام متغيرة ، وهل هي من صنع البشر ام الآلهةوذلك لانهم قد شكوا في كل شيء ، فتسألو عنه هـــذا من جانب ، كما قادهم الاهتمام بالخطابة وطرق التأثير الى البحث في الالفاظ ودلالاتهـــا والقضايا وانواعها من جانب آخر ، ان السفسطائيين استخدموا المنطق في اللغة فادى ذلك الى وضوح ودقة الافكار هذا من ناحية ، كما ادى استخدامهم للمنطق الى انتقال المعرفة بين الافراد انتقالاً صحيحاً ودقيقاً . [٣٥]

لقد بحثوا في اللغة بصورة واسعة فكان لبحثهم تأثير على من جاء بعدهم ، حيث بحث سقراط معاصرهم في حدود الالفاظ والكلمات لتحديد المفاهيم لدى الانسان ، والـــرد عليهم فيما طرحوا من قضايا ، ثم استمر هذا البحث في اللغة لتصبح جزءاً من مشكلات

الفلسفة فبحث افلاطون بعد سقراط في اصل اللغة ، واصبحت الخطابة والجدل جزءاً من المنطق الرواقي واستمر البحث في مشكلات اللغة في العصور الحديثة والمعاصرة حيث أصبحت فلسفة اللغة موضوعاً مهماً من موضوعات الفلسفة .

الخاتمـــــــــة

ربما يكون مناسباً بعد هذا العرض ان ننتهي الى توضيح جملـــة مـــن الامـــور تتصـــل بالسفسطائية وهي :

١- ان السفسطائيين عبروا عن روح المجتمع الجديد الذي ظهر بعد انتصار اثينـــا على الفرس ، بل ان ما كان عليه المجتمع من تغيير قد انسجم مع ما طرحوه .

٢- انكر السفسطائيون القول بالحقيقة الموضوعية ، واقروا وجود الحقيقة النسبية .

٣- قولهم بنسبية الحقيقة يعني تعدد الحقائق وهذا يعطي مرونة أكثر لقبول جميـــع الاحتمالات للحقيقة .

٤- رغم انهم قد شكوا في كل شيء الا ان شكهم لم يطل ادراكات الحواس ، فجميع ما تأتي به الحواس صادقاً ، أي شكوا في كل شيء سوى ادراكات الحواس .

٥- دشن السفسطائيون اتجاهاً جديداً للقيم الخلقية حيث ربطـــوا الافعـــال بالنتـــائج المرتبة عليها ، وليس بالفعل ذاته ، وقد استمر هذا الاتجاه في الفلسفة الحديثـــة مـــع الاتجاه التجريبي والفلسفة المعاصرة مع البراجماتية .

٦- تمثلت أصالة السفسطائيين في تقدمهم للفلاسفة الذين سبقوهم ومن ثم مخـــالفتهم بموضوع البحث حيث رأووا ان يحل الانسان في البحث عن الحقيقـــة بـــدلاً عـــن الطبيعة ، كما تتمثل أصالتهم بالجمع بين مذهبي هرقليطس وديمقريطس والانتهـــاء منها الى مذهب جديد مثل فلسفتهم وبصورة خاصة في نظرية المعرفة والاخلاق .

٧- تعتبر السفسطائية مرحلة مراجعة وتمحيص للفلسفة اليونانية التي سبقتهم ، وقد استمرت عملية المراجعة لتاريخ الفلسفة بعدهم ، وبصورة خاصـــة مـــع افلاطـــون وارسطو ، أي ان السفسطائية قد نقدت ما كان موجوداً ثم انتقت مـــا هـــو مناســـباً ومنسجماً مع ما تؤمن به ، لذا لا يمكن اعقال السفسطائية باعتبارها مرحلة حاســـمة ومهمة من مراحل تطور الفلسفة اليونانية بصورة خاصة والفلسفة بصورة عامة .

المصـــــادر

١- بدوي ، د . عبد الرحمن : ربيع الفكر اليوناني ، ط٤ ، النهضـــة ، القـــاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٦٥

٢- كرم ، د . يوسف : تاريخ الفلسفة اليونانية ، القلم ، بيروت ، ص ٤٥ .

٣- رسل برتراند : حكمة الغرب ، ج١ ، ترجمة فؤاد زكريا ، المجلـــس الـــوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص٩١ .

4-Zeller ,Eduard : Outlines Of The History Of Greek , Philosophy . N .Y .1955. P .91.

* ربما ينطبق ذلك على الفكر لا على كل الواقع اليوناني، فقد ازدهرت الحياة في ظل الديمقراطية، وربما حتى الفكر .

٥-عن الاهواتي ، أحمد فؤاد : فجر الفلسفة اليونانية قبل ســـقراط ، دار احيـــاء الكتـــب العربية ، ط١، ١٩٥٤، ص٢٥١ – ٢٥٢.

٦-سارتون ، جورج : تاريخ العلم ، ج٢ ، ترجمة ، ماجد فخري ، المعارف ، القـــاهرة ١٩٥٩، ص٦٠ .

٧-مطر ، د . اميرة حلمي : الفلسفة عند اليونان ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص٨٨ .

٨- انظر ماركريت تايلور : الفلسفة اليونانية مقدمة ، تعريب عبد المجيد عبد الرحيم ط١ ، النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص٦٦

٩- متى ، كريم : الفلسفة اليونانية ، الارشاد ، بغداد ، ١٩٧١ ، ص ١١٠ .

١٠- الاهواتي : أحمد فؤاد نفس المرجع ، ص٢٥٨

11- WindeIband , W History of Ancient philosophy , cush man , her bert , Ernest , Dover , N. U , 1956 .

** وهو الحلف الذي اسس بعد انتهاء الحروب اليونانية – الفارسية، وسمي بحلف ديلوس نسبة الى جزيرة ديلوس، وقد اقتصر دور اثنا فيه على امداده بالسفن والجنود بينما كانت

مشاركة بقية الاعضاء في النواحي المالية فقط. الشيخ، د. حسين: دراسات في تاريخ حضارة اليونان والرومان، المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٧، ص٩٢ – ٩٣.

12- See you Brumbaugh , Roperts : plato for the modern Age , coller 13 BooKs

١٣- انظر الاهواتي ، أحمد فؤاد : نفس المرجع ، ص٢٥٤ – ٢٥٥

١٤- انظر مطر : اميرة حلمي : نفس المرجع ، ص٨٩ .

١٥- ديورانت ، ول وايريل : قصة الحضارة ، ج٢ ، م٢ ، دار الجبل للطبع والنشر والتوزيع بيروت ، ١٩٨٨ ، ص٢١٦ .

١٦- انظر الشيخ ، د. حسين ، دراسات في حضارة اليونان والرومان ، المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٧ ، ص١١٤ – ١١٥ ومتى ، كريم ، نفس المرجع ، ص١١٠ .

17- The Encyclopedia of philosophy , vol , u.s.A , 1967 , p.494 – 495

Blevi , Albert , william : philosophy as social expression , university of chica go press , chica go , 1974 , p.56 .

١٨- بدوي ، عبد الرحمن : نفس المرجع ، ص١٦٧ – ١٦٨ .

٢٠ متى كريم : نفس المرجع ، ص١١١ – ١١٢ .

٢١- الطويل ، توفيق : فلسفة الاخلاق نشأتها وتطورها ، ط٣ النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص٠٣٠

٢٢- فرنر ، شارل الفلسفة اليونانية ، ترجمة تيسير شيخ الارض ، ط١ ، الانوار ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٥١ ، ومتى كريم ، نفس المرجع ، ص١١٢ .

٢٣- الطويل ، توفيق ، نفس المرجع ، ص٣٠ – ٣١ ، ومتى كريم ، نفس المرجع ، ص١١٠– ١١١

٢٤- بدوي ، عبد الرحمن ، نفس المرجع ص١٦٩ .

٢٥- الاهواتي ، أحمد فؤاد ، نفس المرجع ص٢٥٨ .

٢٦- المصدر نفسه ، ص٢٥٧ – ٢٥٨ .

٢٧- الطويل ، توفيق ، نفس المرجع ، ص٣٠ .

٢٨- متى . كريم ، نفس المرجع ، ص١١٤ – ١١٥ .

٢٩- الطويل ، توفيق ، نفس المرجع ص٣٠ –٣١ وامام عبد الفتاح امام ، محاضـــرات في فلسفة الاخلاق ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص٣٨ .

٣٠- الاهواتي ، أحمد فؤاد ، نفس المرجع ، ص٢٧٢ .

٣١- مطر ، اميرة حلمي ، نفس المرجع ص٩٠ .

٣٢- امام ، عبد الفتاح امام : نفس المرجع ، ص٢٧٢ .

٣٣- متى ، كريم :/ نفس المرجع ، ص٤٨ .

٣٤- انظر ، كرم ، يوسف ، نفس المرجع ، ص٢٣٤ – ٢٤٠ .

٣٥- ديورانت ، ول وايريل ، نفس المرجع ، ص٢١٦ .